

دلالة التقديم والتأخير في تفسير البيضاوي (ت 685هـ)

المسمى ب: أنوار التنزيل وأسرار التأويل

The significance of Anastrophe in Tafseer al-Baydawi d. 685

الطالبة: فاطمة قورين

Gorinefatima1988@gmail.com

إشراف: أ د مختار درقاوي

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف (الجزائر)

تاريخ النشر: 2019/06/03

تاريخ القبول: 2019/04/24

تاريخ الإرسال: 2018/10/18

الملخص:

تمتاز اللغة العربية بخصائص تركيبية عجيبة، منها التقديم والتأخير، وهو أسلوب له وظيفته الدلالية التي تكشف عن بعض جوانب الإعجاز البياني في القرآن، ومنه كانت قضية التقديم والتأخير من أهم القضايا التي لقيت اهتماما واسعا من قبل النحويين والبلاغيين والمفسرين. الكلمات المفتاحية: الدلالة: التقديم: التأخير.

ABSTRACT: There is no doubt that the Arabic language is characterized by peculiar synthetic characteristics, including presentation and delay, a method that has a semantic function that reveals some aspects of the miraculous in the Koran. The issue of submission and delay was one of the most important issues that received wide attention by the grammarians, linguists and interpreter.

Keywords: significance; submission; delay.

يعد التقديم والتأخير من خصائص اللغة العربية، وأدق أبوابها البلاغية، وميزة من ميزاتها الفريدة، وسمة من سمات كلامها البليغ، وهو أحد أساليب العدول التي تؤكد على مرونة اللغة وحيويتها وشجاعتها في الخروج عن المألوف لغرض بلاغي. وما هو جدير بالقول، إن علماء العربية قد عنوا بهذه الظاهرة التي تقع في كثير من التركيب، وأولوها اهتمامهم، ودرسوها بكثير من الدقة والتفصيل، ووقفوا على لطائفها وأسرارها، فكانت من أكثر الأبواب التي نالت حظا وافرا من الدراسة والتناول من قبل النحويين والبلاغيين وغيرهم. فالتقديم والتأخير «نافذة مشتركة بين علمي النحو والبلاغة، فتجده في كتب النحو في أبواب المسند و المسند إليه، وتجده في كتب البلاغة في موضوعات علم المعاني، فالتقديم والتأخير قد جمعا أكثر من تخصص علمي، وأثبتا صلة العلاقة وقوتها بين النحو والبلاغة»¹. و تفسير ذلك أن أسلوب التقديم والتأخير سمة إبداعية للتصرف في الوضعيات الكلامية، أو هو انحراف و عدول عن النمط المألوف للتركيب النمطي للجملة، و (إنَّ تقديم شيء على شيء أو عنصر على عنصر في التركيب الواحد نظاماً حياتي قائم منذ الأزل، فالرأس قبل الذنب، والكبير قبل الصغير والأهم قبل المهم، وهذا المبدأ مُتَّبَع في وجوه الكلام البليغ قبل ولادة علم المعاني وبعدها، ولا بد لنا من غاية في تقديم ما حقّه التأخير، وتأخير ما حقّه التقديم، هذه الغاية تختصر في غاية البلاغة كلّها وهي ملائمة الكلام لمقتضى الحال)².

وإذا كانت البلاغة قائمة على ترتيب الألفاظ وجمال موقعها في السياق؛ فإن أسلوب التقديم والتأخير له المساحة الواسعة في الدرس البلاغي ليصل منشئ الكلام إلى أقصى حد من التأثير في المتلقي³ ذلك من خلال تحويل الكلمات عن موقعها الأصلي، وحسن التصرف فيها تأدية لأغراض بلاغية يتطلبها المقام، ما كانت لتؤديها لو حافظت على رتبها المعهودة.

إن الأسرار البلاغية و اللطائف الدقيقة التي يمتاز بها هذا التنظيم التركيبي العجيب في اللغة العربية، فطن إليها علماؤها في مرحلة باكرة، فهذا سيبويه (ت 180 هـ) يقول: (كأنهم يُقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهّانهم ويعنيانهم)⁴ فسيبويه وإن لم يعقد باباً للتقديم والتأخير، قد قدّم إشارات صريحة إلى أن هذا الأسلوب لا يجيء في الكلام إلا لفائدة يؤمّها المتكلم، ولحاجة في نفسه اقتضت الاهتمام بعنصر كلامي دون غيره من العناصر.

وإذا كان سيبويه قد اكتفى بتقديم ملاحظات وإشارات حول الدواعي البلاغية للتقديم والتأخير، فإن عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في دلائله قد قدّم بحثاً مُكتملاً ومُتميّزاً، استفاد منه الدارسون فيما بعد، فقد استطاع الجرجاني بذوقه الناضج وفكره الثاقب أن يستجلي أسرار هذا الأسلوب، ويكشف الستار عن فرائده ودقائقه.

يقول الجرجاني في فصله عن "التقديم والتأخير": (هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترك عن بدیعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه، ولطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجده سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول فيه اللفظ عن مكانه). (5)

فعبد القاهر يؤكد على متانة الصلة بين الانحراف الحاصل على مستوى تركيب الجملة من خلال تبادل مواقع عناصرها، ومحوّلها الدلالي، فأی تغيير يحدث في ترتيب الكلام إنما جاء لتحقيق غرض جديد، ومثال ذلك أن يقدم ذكر الخارجي، فيقول: (قتل الخارجي زيد، ولا يقول قتل زيد الخارجي. لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى أو فائدة، فيعنيهم ذكره ويههم ويتصل بمسرتهم، ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون له ومتطلعون إليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد، وأنهم قد كفوا شره وتخلصوا منه). (6)

فقد قدم الجزء الأهم وهو المفعول به "الخارجي" وما كان ليتقدم إلا لعناية الناس به واهتمامهم بأمره، فكان الاهتمام والعناية من دواعي التقديم، وقد نبه الجرجاني على ضرورة البحث في أسباب هذه العناية والاهتمام بها وتفسيرها.

دلالة التقديم والتأخير في تفسير البيضاوي:

1/ التخصيص:

اختلفت الأغراض البلاغية، وتعددت المقاصد الدلالية لظاهرة التقديم والتأخير في كتاب الله العزيز، وذلك حسب المقام اللغوي، والموقف الكلامي الذي يقتضيها، ومن الأغراض التي أفادها التقديم في كثير من الآيات التخصيص الذي يعني نسبة الشيء وانفراده به دون غيره.

فمن التقديم الذي جاء لغرض "التخصيص" قوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين" (7) ففي هذه الآية الكريمة تقدم المفعول به وهو الضمير المنفصل "إيا" والأصل في الجملة الفعلية تأخير المفعول به على الفعل والفاعل معاً، وما عدا ذلك فهو مخالف للعرف النحوي يقول البيضاوي: (ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميزها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة ليكون أدل على الاختصاص). (8)

والجدير بالذكر أن هناك آيات كثيرة جاء فيها التقديم لغرض التخصيص، كقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون" (9)، يقول البيضاوي رحمة الله عليه: "إن كنتم إياه تعبدون" إن صح أنكم تخصونه بالعبادة، وتقرون أنه مولى نعم، فتقديم إياه في هذه الآية أفادت اختصاص الله سبحانه وتعالى بالعبادة، فلا معبود غيره.

2/ العناية والاهتمام:

من الأغراض الدلالية لظاهرة التقديم والتأخير العناية والاهتمام، فمن سنن العرب في كلامها تقديم الجزء الأهم في الكلام، وتأخير ما دون ذلك، وهذا ما أشار إليه سيبويه حين قال: (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهملهم ويعنيانهم). (10)

وشرح الجرجاني هذا الغرض في قوله: (فإن كان رجل ليس له بأس، ولا يقدر فيه أن يقتل رجلاً، وأراد المخبر أن يخبر بذلك، فإنه يقدم ذكر القاتل فيقول: قتل زيد رجلاً: ذلك لأن الذي يعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل طرافته وموضع الندرة فيه وبعده كان من الظن، ومعلوم أنه لم يكن نادراً وبعيداً، من حيث كان واقعا بالذي وقع به، ولكن من حيث كان واقعا من الذي وقع منه، فهذا جيداً بالغ) (11)،

ومن الآيات التي جاء فيها التقديم والتأخير، وفسره البيضاوي بأنه إنما جاء لغرض الاهتمام والعناية قوله تعالى: "الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" (12)، ففي هذه الآية قدم المفعول به وهو الاسم الموصول (ما) على الفعل والفاعل (ينفقون)، والأصل في الجمل التي تحتوي مفعولاً به أن يؤتى بالفعل، فالفاعل، فالمفعول به. (13)

وإذا تعدى الفعل إلى مفعولين، فالأصل تقديم ما هو فاعل في المعنى، نحو: "أعطيت زيدا درهما"، فالأصل تقديم زيد على "درهم"، لأنه فاعل في المعنى، لأن زيد هو الآخذ للدرهم، وكذا كسوت زيدا جبة" و"ألْبَسَن من زاركُم نَسَج اليمَن" ف "من": مفعول أول و"نَسَج" مفعول ثان، والأصل تقديم "من" على "نَسَج اليمَن" لأنه اللابس، ويجوز تقديم ما ليس فاعلاً معنى لكنه خلاف الأصل. (14)

ومن أمثلة تقديم المفعول به الثاني على الأول ما ورد في الآية الكريمة على لسان النبي موسى عليه السلام: "قال ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري (15)، وجه البضاوي ظاهرة التقديم في الآية بقوله: "ومفعولا اجعل: "وزيرا" و"هارون" قدم ثانيهما للعناية به" وهذا ماذهب إليه الزمخشري في قوله: (وزيرا وهارون مفعولا قوله: اجعل، قدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة). (16)

3/ تقوية الحكم وتقديره في نفس السامع:

من الأغراض التي تستفاد من تقديم كلمة تقوية الحكم وتقديره في نفس السامع، وهذا الغرض أطال فيه الجرجاني الحديث حين أكد على أن القصد في تقديم الفاعل على الفعل في الجملة المثبتة ينقسم إلى قسمين:

أولهما يفيد الاختصاص والانفراد بالأمر، يقول الجرجاني رحمه الله: (أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر أو دون كل أحد، ومثال ذلك أن تقول: أنا كتبت في معنى فلان وأنا شفعت في بابه، تريد أن تدعي الانفراد بذلك والاستبداد به، وتزيل الاشتباه فيه، وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك وأن غيرك قد كتبت فيه ما كتبت). (17)

والقسم الثاني يفيد تقوية الحكم وتأكيده لدى السامع، وفي هذا يقول رحمه الله: (أن لا يكون القصد إلى الفاعل، ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنه قد فعل وتمنعه من الشك فأنت لذلك تبدأ بذكره، وتوقعه أولا ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه، لكي تباعده من الشبهة وتمنعه من الإنكار، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيد). (18)

ومن أمثلة هذا القسم التي ذكرها الجرجاني في شرحه: (هو يعطي الجزيل، وهو يحب الثناء: لا تريد أن تزعم أنه ليس ههنا من يعطي الجزيل، ويحب الثناء غيره، ولا أن تعرض بإنسان وتحطه منه، وتجعله لا يعطي ولا يرغب كما يرغب، وكذلك أن تحقق على السامع أن إعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه، وأن تمكن ذلك في نفسه). (19)

ومثاله من الشعر العربي قول عروة بن أذينة: (20)

سـليـى أزمعـت بينـا فـأين تقولـه أينـا

يشرح الجرجاني قصد التقديم في هذا البيت بقوله: (وذلك أنه ظاهر ومعلوم أن يجعل الإزماع لها خاصة، ويجعلها من جماعة لم يزعم البين منهم أحد سواها، هذا محال، ولكنه أراد أن يحقق الأمر ويؤكد، فأوقع ذكرها في سمع الذي كلم ابتداء، ومن أول الأمر ليعلم قبل هذا الحديث أنه أرادها بالحديث، فيكون ذلك أبعد له من الشك). (21)

ومن التقديم الذي أفاد هذا الغرض أيضا تقديم المفعول به "الله" في هذه الآية: "قل الله أعبد مخلصا له ديني" (22)، يقول البضاوي- رحمه الله:- (أمر بالإخبار عن إخلاص، وأن يكون مخلصا له دينه، بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأمورا بالعبادة والإخلاص خائفا عن المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم) (23) وهذا ما

ذهب إليه أيضا الزمخشري، فهذا التقديم عنده "إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه، ولدلالته على هذا قدم المعبود على فعل العبادة". (24)

قال الله تعالى في محكم تنزيله: "وأية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكولون" (25) قال البيضاوي في تفسير هذه الآية: "أحييناها" خبر لـ "الأرض"، والجملة خبر "آية" أو صفة لها إذ لم يرد بها معينة وهي الخبر أو المبتدأ، والآية خبرها، أو استئناف لبيان كونها "آية" و"أخرجنا منها حبا" جنس الحضب "فمنه يأكولون" قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به". (26)

4/ شرف المقدم وتعظيمه:

إن المتدبر في القرآن الكريم وفي أساليبه، ليلحظ أن هناك ألفاظا قد قدمت في الكلام، وهذا دلالة على شرف المقدم وعظم مكانته، ومنه تقديم النبي محمد – عليه الصلاة والسلام – في هذه الآية الكريمة: " وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا" (27) قال البيضاوي –رحمه الله تعالى-: " خصهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع، وقدم نبينا – عليه الصلاة والسلام- تعظيما له وتكريما لشأنه" (28)

ومن التقديم الذي جاء لغرض التعظيم تقديم المفعول به " ذلك" في الآية الكريمة: " ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازي إلا الكفور" (29)، يقول البيضاوي: "ذلك جزيناهم بما كفروا" بكفرانهم النعمة، أو بكفرهم بالرسول، إذروي أنه بعث إليهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم، وتقديم المفعول به للتعظيم لا للتخصيص. (30)

وإذا كان البيضاوي قد فسر دلالة التقديم في هذه الآية بالتعظيم، فإن صاحب الكشاف يفهم من كلامه أن هذا التقديم جاء لغرض التخصيص لا التعظيم، فمثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر، وهو العقاب العاجل، فالؤمن تكفر سيئاته بحسناته، فيجازى بجميع ما عمله من السوء، و الجزاء عام لكل مكافأة، يستعمل تارة في معنى : الإثابة، وأخرى في معنى : المعاقبة، كقوله: " جزيناهم " بمعنى : عاقبناهم بكفرهم. (31)

5/ الإنكار والتعجب :

ومن التقديم والتأخير الذي جاء لعرض الإنكار، ما حكاه الله في كتابه على لسان آزر لإبراهيم، حين دعاه ابنه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان والأصنام، فقد قدم الخبر، وآخر المبتدأ – الذي أصله التقديم في جملته – في هذه الآية : (قال أراغب أنت عن آلهي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا" (32) ف "راغب" خبر مقدم، و "أنت" مبتدأ مؤخر، ولقد جاز الابتداء بالنكرة لأنها مسبوقة باستفهام .

قال البيضاوي في تفسير هذه الآية الكريمة : (قال أراغب أنت عن آلهي يا إبراهيم) قابل استعطافه ولطفه في الإرشاد بألفاظه وغلظة العناد، فناده باسمه، ولم يقابل "يا أبت" : ب يابني، وأخره، وقدم الخبر على المبتدأ، وصدره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنها قائل، ثم

هدده فقال: "لئن لم تنته" عن مقالك فيها أو الرغبة عنها، "لأرجمنك" بلساني يعني الشتم والذم، أو بالحجارة حتى تموت، أو تبعد مني". (33)

وقد فسر الزمخشري هذا التقديم بالاهتمام بالمقدم، وكذا بالتعجب من فعله، وإنكار رغبته، فيقول: "وقدم الخبر على المبتدأ في قوله "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم" لأنه كان أهم عنده، وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته في آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد، وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، عما كان يلقي من مثل ذلك من كفار قومه". (34)

ومما تقدم في الرتبة لغرض الإنكار، المفعول به "غير" على الفعل "يبغون" في الآية الكريمة: "أفغير دين الله تبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه ترجعون" (35)، قال البيضاوي رحمه الله -: "وتقديم المفعول به لأنه المقصود بالإنكار، فهذا إنكار واقع على كل من يقبل ديننا غير دين الله الإسلام، بعد كل الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، التي قدمت لهم، وعلمهم بأنه أسلم لله من في السموات ومن في الأرض جميعا". (36)

وإذا كان تقديم المفعول به على الفعل قد أفاد الإنكار في الآية السابقة، فإن تقديم الظرف كانت بلاغته الإنكار في هذه الآية: "أ إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أ إنا لمبعوثون" (37) يشير البيضاوي إلى أن أصل الآية "أنبعث إذا متنا" فبدلو الفعلية بالاسمية وقدموا الظرف إشعارا بأن البعث مستنكر في نفوسهم (38)، فالمعنى "أيبعث أيضا أبأؤنا على زيادة الاستبعاد، يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعد وأبطل" (39)، فالمشركون ينكرون حقيقة البعث، ويستبعدون الحياة بعد الموت، ويزعمون أنه بموتهم ينتهي كل شيء.

الهوامش:

¹ : التقديم والتأخير في سورة البقرة، أحمد قاسم كسار، المجلة العربية لبحوث القرآن، جامعة ملایا، ماليزيا، العدد: 2، 2012، ص: 38

² : المعين في البلاغة (البيان-البدیع-المعاني)، قدری مايو، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص: 188

³ : ينظر: أثر الترجمة في أسلوب التقدير والتأخير في القرآن الكريم، هناء محمود شهاب، مجلة التربية والعلم، المجلد: 17، العدد: 2، 2010، ص: 143

⁴ : الكتاب، سيوييه، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1988، ج3، ص: 34

5 دلائل الإعجاز، الجرجاني، تح: محمد رضوان الداية وفايز الداية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2007، ص: 134.

6 المصدر نفسه، ص: 144.

7 سورة الفاتحة، الآية: 5.

8 تفسير البيضاوي، ج1، ص 28-29.

9 سورة البقرة، الآية: 172.

10 الكتاب، سيوييه، ج2، ص: 24

11 دلائل الإعجاز، الجرجاني، ج1، ص: 24.

12 سورة البقرة، الآية: 3.

13 معاني النحو، السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2000، ص: 85.

14 ينظر: شرح بن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، مصر، ط2، ج2، 1980، ص: 154-155.

15 سورة طه، الآيات: 25-29.

16 الكشف، الزمخشري، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2009، ج3، ص: 655.

- 17 دلائل الإعجاز ، الجرجاني، ص 157، 158.
- 18 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 19 المصدر نفسه الصفحة نفسها.
- 20 شعر عروة بن أذينة، يعي الجبوري، دار القلم، الكويت، ط2، 1981، ص 398.
- 21 دلائل الإعجاز ، الجرجاني، ص 160.
- 22 سورة الزمر، الآية: 14.
- 23 تفسير البضاوي، ج3، ص: 39.
- 24 الكشاف، الزمخشري، ص 937.
- 25 سورة يس، الآية: 33.
- 26 تفسير البضاوي، ج4، ص 265.
- 27 سورة الأحزاب، الآية: 7.
- 28 تفسير البضاوي، ج4، ص 265.
- 29 سورة سبأ، الآية: 17.
- 30 تفسير البضاوي، ج4، ص 245.
- 31 ينظر: الكشاف، الزمخشري، ص 872.
- 32 سورة مريم، الآية: 49.
- 33 تفسير البضاوي، ج4، ص 12.
- 34 الكشاف، الزمخشري، ص 638.
- 35 سورة آل عمران، الآية: 83.
- 36 تفسير البضاوي، ج2، ص 26.
- 37 سورة الصافات، الآية: 16.
- 38 ينظر: تفسير البضاوي، ج5، ص 7.
- 39 تفسير البحر المحيط، التوحيدي، تح: عادل أحمد عبد المؤمن، وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج7، ص 340.